

السكن وعلاقته باندماج المهاجرين من جنوب الصحراء حالة مدينة

مكناس المغربية** مقال مترجم إلى العربية

Housing and its relationship to the integration of immigrants from sub-saharan africa: the case of the moroccan city of meknes

سفيان لشهب*، جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، المغرب

lachheb.soufiane@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/12/08

تاريخ القبول: 2020/11/28

تاريخ الإرسال: 2020/10/01

ملخص:

في هذا المقال** سنتطرق لسيرورة اندماج المهاجرين من جنوب الصحراء (الكاميرونيين والسنغاليين)، بالتركيز على الولوج إلى السكن (l'accès au logement)، والبحث في العلاقة بين هذا الأخير وإمكانية تحقيق الاندماج، مفترضين أن الولوج إلى السكن مؤشر (indicateur) يمكن أن نقارب من خلاله اندماج هؤلاء المهاجرين في مدينة مكناس. وقد تبين لنا من خلال الاشتغال على مسارات الهجرة واستراتيجيات البحث والولوج إلى السكن، أن شروط الاستقرار l'installation في المغرب غير متوفرة (في نظر المهاجرين)، وبالتالي فإن الاندماج أمر صعب، إن لم يكن وهما. الكلمات المفتاحية: الهجرة، الاندماج، المدينة، السكن، المهاجرين من جنوب الصحراء.

Abstract:

In this paper, we approach the integration process of sub-Saharan immigrants (Cameroonians and Senegalese), by focusing on the access to housing, and looking at the relationship between the latter and the possibility of integration achievement, supposing that the

* المؤلف المرسل

** هذا المقال هو ثمرة بحث أجريته بعد الاستفادة من منحة:

Projet « Migration : Intégration, Identité et Mobilité », programme de recherche initiée par la Fondation Heinrich Böll, la phase 1 du 1 juillet à 30 novembre 2016. وهو منشور باللغة الفرنسية في: S. Lachheb, « Accès au logement et intégration des migrants subsahariens le cas de la ville de Meknès », dans L'immigration au Maroc : les défis de l'intégration, coordonné par K. Mouna, N. Harrami, D. Maghraoui, collection RSSI, Rabat-Maroc.

access to housing is an indicator through which we can measure the extent of sub-Saharan immigrants integration in Meknes. The immigration paths and the searching and accessing to housing strategies show that the conditions of settlement in Morocco are non-existent (according to the immigrants) hence the integration is difficult to achieve, or even seems to be a delusion.

Keywords: Immigration, Integration, City, housing, sub-Saharan immigrants.

مقدمة

المغرب أساسا بلد للزوح، لكنه أصبح بلدا للعبور، وفي السنوات الأخيرة تحول شيئا فشيئا إلى بلد لاستقبال المهاجرين¹ من جنوب الصحراء، وأوروبا، وكذلك للاجئين (السوريين خصوصا). فبسبب العديد من الأوضاع الاقتصادية، السياسية والطبيعية، يقرر العديد من الأفراد الانتقال والهجرة للبحث عن مكان أفضل. لكن القيود المفروضة على طلبات التأشيرة، تعمل على الرفع والدفع بالمهاجرين الذين يعانون من واقع الحروب والكوارث الطبيعية، وأحيانا من الاضطهاد، إلى سلك طرق أخرى للهجرة.

بعد سنة 2000، أصبح معدل ارتفاع المهاجرين من جنوب الصحراء في اضطراب مستمر. والمغاربة اكتشفوا ساكنة جديدة عليهم أن يدخلوا معها في تبادلات échanges، وتفاعلات، في محاولة للعيش معا *vivre ensemble*². هكذا فظاهرة الهجرة وما يترتب عنها من مشاكل الاندماج، والإقصاء، تجعل من الضروري وضع التحديات السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية، المفروضة على المغرب موضع تساؤل. من هذا المنطلق سنبحث في إمكانية اندماج المهاجرين من جنوب الصحراء (الكاميرونيين والسنغاليين) في مدينة مكناس المغربية.

ومن بين كل العوامل التي تساعد وتمكن من إدماج جماعات المهاجرين، يعتبر السكن بدون شك، حسب "عبد المالك صياد"، العامل الأكثر فعالية، غير أنه يبقى -بالرغم من ذلك- العامل الأكثر

¹ Khachani Mohammed. "Contexte migratoire et espaces d'intégration au Maroc", 2014, in Actes du Séminaire international sur l'intégration des immigrés au Maroc sous le thème : La nouvelle politique migratoire au Maroc.

² Migration subsaharienne, Association Lumière sur l'Emigration au Maroc, 2015.

نقصا من حيث الاهتمام، الأكثر بؤسا، والأكثر تمييزا¹ le plus discriminatoire ، وفي سياقنا المغربي الأقل اهتماما من حيث الدراسة. حيث لم نقف على أية دراسة تعالج إشكالية ولوج السكن بالنسبة للمهاجرين في المغرب، اللهم كإشارات عابرة في بعض الدراسات أو التقارير.

في هذا المقال سنتطرق لسيرورة اندماج المهاجرين من جنوب الصحراء (الكاميرونيين والسنغاليين خاصة)، بالتركيز على الولوج إلى السكن (l'accès au logement)، والبحث في العلاقة بين هذا الأخير وإمكانية تحقيق الاندماج، مفترضين أن الولوج إلى السكن مؤشر (indicateur) يمكن أن نقارب من خلاله اندماج هؤلاء المهاجرين في مدينة مكناس.

1. ملاحظات منهجية

قاربنا موضوعنا بمنهج كفي؛ معتمدين على الملاحظة، المقابلة، والبيوغرافية. فالعيش في منزل يقطنه مهاجرون من جنوب الصحراء (كاميرونيون)، مكننا من تتبع مختلف العلاقات التي تجمع بينهم وبين بعض أفراد المجتمع (صاحب المنزل، باقي السكان، سكان الحي...)، وكذلك من الوقوف على الحياة اليومية للمهاجر. أما المقابلة، فقد عملنا من خلالها على البحث في "الإشكالات" التي تواجه المهاجر خلال بحثه عن السكن، وفي الاستراتيجيات التي ينفجها، على اعتباره فاعلا (Acteur)، لإيجاد سكن في مرحلة أولى، ومحاولة الاندماج في مرحلة ثانية. وقد تركنا فرصة أكبر للمبحوثين للحديث عن المسار الهجروي (le parcours migratoire)، وسيرورة البحث عن السكن ومحاولة الاندماج. وفي هذا الصدد فقد أجرينا مقابلات مع تسعة مهاجرين كاميرونيين، ستة سنغاليين، اثنان من أصحاب المنازل، ووسيطين عقاريين (سمسارين)، بالإضافة إلى خمسة من المغاربة يتشاركون مع المهاجرين الكاميرونيين نفس المسكن. من هنا فمجموع العينة قد بلغ أربعة وعشرون مستجوبا.

2. الإطار المفاهيمي

سنناقش في هذا المحور، بشكل مقتضب، مفهوم الهجرة، ثم سنتحدث عن مفهومي الانصهار والاندماج، وكيف انتقلنا من استعمال الأول (الانصهار) إلى الثاني (الاندماج). لنخلص إلى أن الاندماج ليس سيرورة خطية، كما حاولت أولى النماذج وصفه، وليس مفكرا فيه دائما، بل يمكن له أن يحدث بشكل تلقائي و"دون وعي" من المهاجر نفسه.

¹ Sayad Abdelmalek, L'immigration ou les paradoxes de l'altérité, L'illusion du provisoire, Paris, éd Raisons D'agir, 2006, P 110.

1.2 الهجرة

الهجرة¹ هي انتقال للسكان من نقطة جغرافية إلى أخرى. وأول تأثير لظاهرة الهجرة يتمثل في الإلزام الذي يُفرض على المهاجرين للقيام بأدوار جديدة، خصوصا عندما نكون بصدد الحديث عن هجرة دولية. ومن أجل وصف أسباب الهجرة فقد تم على مر عقود إنتاج مفاهيم ونظريات عديدة:

¹ يقول أحمد أبوزيد أن مفهوم المصطلحات الأجنبية غير واضح في أذهان الكثيرين ممن يكتبون باللغة العربية، وليس أدل على ذلك من أن "قاموس علم الاجتماع" الذي قام بتأليفه ليفيف من أساتذة علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية يستخدم كلمة "هجرة خارجية" في مقابل الكلمات الإنجليزية الثلاث: Immigration و Emigration و Migration ثم يقدم التعريفات التالية لهذه الكلمات:

أ- Emigration هجرة خارجية: انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يستوطنوا موطنًا آخر ص 156
ب- Immigration هجرة خارجية: زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر تجعل منه مكانا جديدا للإقامة الدائمة، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة على دولة أخرى (ص 237).
ج- Migration هجرة خارجية: حركة دائمة نسبيا يقوم بها شخص أو جماعة تتخطى السياسية نحو منطقة أو مجتمع جديد (ص 289) راجع: قاموس علم الاجتماع، حرره وراجعته: الدكتور محمد عاطف غيث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (1979).

كذلك تظهر عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في "قاموس الأنثروبولوجيا" الذي قام بتأليفه الدكتور شاكرو مصطفى سليم ونشر بالكويت عام 1981 حيث نجد التعريفات التالية:

أ- هجرة خارجية Emigration: هجرة الجماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وحدودها الإقليمية التقليدية بهدف الإقامة الدائمة في الموطن الجديد. وتحدث الهجرة الخارجية عادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو تهجير من قوة غازية، أو طلبا لمستوى معيشي أفضل.

ب- هجرة داخلية Immigration: تحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الإقليم تحدث عادة بين موطنين يكون (أحدهما) مزدهما بالسكان وفيه عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية منفرة، ويكون الثاني أقل ازدهاما بالسكان وفيه عوامل جاذبة (ص 481).

ج- هجرة Migration: حركة واسعة لمجموعة سكانية داخل موطنها أو إلى موطن آخر. وقد تكون الهجرة موسمية طلبا للماء والكلأ. كما قد تكون دائمة بسبب الكوارث الطبيعية أو التبدلات الاجتماعية أو الحروب أو لتحقيق مستوى معيشي أفضل (ص 631).

ومثل هذا الخلط في فهم مدلول المصطلحات يوجد في كثير من الكتابات الأخرى التي تقنع بالمعنى المعجمي للكلمة ولا تنظر إلى اتجاه سير الهجرة migration عموما باعتبارها حركة سكانية (تخرج) من مجمع معين emigration وتتجه على مجتمع آخر حيث (تدخل) فيه immigration.

أنظر: أحمد أبوزيد، الهجرة وأسطورة العودة، مجلة عالم الفكر المجلد السابع عشر - العدد الثاني - يونيو - أغسطس - سبتمبر 1986، ص 6.

حيث ينبغي التمييز أساسا بين ما يسميه البعض بالانصهار الثقافي (l'assimilation culturelle) (يصطلح عليه البعض بالثقافت) والمقصود هنا هو التركيز على عملية استدماج المهاجرين للنماذج الثقافية لبلد الاستقرار؛ وبين ما يسميه البعض الآخر بالانصهار البنوي (l'assimilation structurelle) (وهو ما يعتبر اندماجا (intégration)، ويمكننا وصفه على أنه السيرورة التي بموجبها يشارك المهاجر في مختلف المجموعات الأولية لبلد الاستقرار¹.

تميز سوسولوجيا الهجرة تقليديا بين إشكاليتين أساسيتين؛ الأولى تتعلق بالنزوح، والثانية باستقرار المهاجرين. هكذا فإن مواضيع دراسة الإشكالية الأولى تركز على أسباب الهجرة، التأثير على دول الانطلاق ودول الوصول، وعلى عملية التنقل le déplacement؛ في حين أن مواضيع دراسة الإشكالية الثانية، تركز على البحث فيما نصلح عليه بالاندماج، وعلى احتلال موقع، اجتماعي واقتصادي وسياسي، في المجال الوطني الجديد. والهجرات les migrations تغطي حالات جد متباينة يمكنها أن تعرف من خلال التركيز على ثلاث خصائص مهمة: (1) المجالات المقطوعة، (2) المدد les durées، (3) الأسباب².

ارتباطا بإشكاليتنا، نجد أنه من الضروري في هذه المرحلة أن نطرح السؤال حول ما نقصده بمفهوم الاندماج؟

2.2 من الانصهار إلى الاندماج

يكتنف لفظ الاندماج intégration الكثير من الغموض، لأنه ينتمي في الوقت نفسه إلى اللغة السياسية واللغة السوسولوجية، إضافة إلى اقترانه بالممارسة السياسية والنقاشات المجتمعية المثارة حول قضايا الهجرة (إدماج المهاجرين) والتعدد الثقافي (الهوية الثقافية). فالاندماج غالبا ما يطرح كمقابل لعدم الاندماج désintégration، وكمقابل للاختلال anomie والإقصاء exclusion والجنوح

¹ Raymond Boudon et al, Dictionnaire De La Sociologie, éd La Rousse, Paris , 2012, P 148.

² Rea Andrea et Tripier Maryse, Sociologie de l'immigration, éd La Découvert, Paris, 2003, P.5.

délinquance والانحراف et déviance والانفصال dissociation والتمرد dissidence....، وعدم الانتساب
désaffiliation الخ¹.

ومن خلال جرد حصيلة الأبحاث السوسيولوجية حول سيرورات الاندماج يمكن الاستنتاج أن
مفهوم "الانصهار" Assimilation وظف خلال فترة تشكل السوسيولوجيا في الفترة الممتدة من 1880
إلى 1950، في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر منه في فرنسا، للإشارة إلى السيرورة التي عن طريقها
يصبح المهاجرون الجدد أعضاء في مجتمع الاستقرار².

ففي كتاب "مقدمة لعلم الاجتماع" Introduction to the science of sociology الذي هو عبارة
عن مجموعة من النصوص التي جمعها وعلق عليها كل من بارك Park وبيرجس Burgess فإن جزءا
من تلك النصوص يتعلق بدورة العلاقات الإثنية: المنافسة، الصراع، التكيف، والانصهار. ويوجد هذا
الأخير (الانصهار) في قلب ما نسميه/نصطلح عليه "مشاكل الهجرة". فحسب الباحثين (بارك وبيرجس)
الانصهار هو سيرورة من التأويل والذوبان من خلالها يمتلك الأشخاص أو المجموعات الذاكرة، المشاعر،
الأحاسيس ومواقف الأشخاص والمجموعات الأخرى، بمشاركة تجاربهم وتاريخهم. فالانصهار هو سيرورة
للتعديل، بموجبها يتم استباق وتخفيض الصراعات، ومراقبة المنافسة وضمان أمن النظام
الاجتماعي... الخ.

هكذا فيرجس وبارك يعتبران بأن تداول لغة مشتركة ومعرفة تاريخ بلد الاستقرار يمثلان
البعدين الأساسيين في عملية الانصهار، وهذه الأخيرة لا يمكن أن تتحقق بطريقة مباشرة، بل بطريقة
غير مباشرة، مثلا من خلال خلق فرص مشاركة المهاجرين في الجماعات التي يعيشون فيها؛ "المشاركة"
la participation هي في نفس الوقت وسيلة وهدف لانصهار³.

أما في الستينات (1964) فقد اقترح جوردن Milton Gordon تحليلا جديدا لسيرورة الانصهار
(المراحل السبع للإدماج)⁴، حيث يقابل بين الانصهار والتناقص البنوي. فهذا الأخير يشترط التكيف مع

¹ فوزي بوخرىص، الاندماج الاجتماعي والديمقراطية: نحو مقاربة سوسيولوجية، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود،
2015.

² المرجع نفسه.

³ Rea Andrea et Tripier Maryse, ibid p 16.

⁴ سيرورة الانصهار حسب جوردون تنقسم إلى سبعة مراحل: المرحلة الأولى هي المتعلقة بالتناقص ومن خلالها يأخذ أعضاء
الأقليات الإثنية الممارسات الثقافية les pratiques culturelles مثل اللغة، عادات اللباس والأذواق الموسيقية باستثناء
الممارسات الدينية. المرحلة الثانية تتمثل في الانصهار البنوي، وهي الموسومة بدخول الأقليات الإثنية في الجمعيات النوادي،

المعايير الثقافية المهيمنة. في حين أن الانصهار البنيوي يهيم بشكل أساسي، إدماج أعضاء الأقليات الإثنية في حياة المجموعات الثانوية les groupes secondaires (جمعيات، نوادي...)، وفي المجموعات الأولية (العلاقات الودية، العائلية...) للمجتمع الأمريكي. وفي حين أن نموذج لا يستند فقط على مميزات وخصائص المهاجرين، فإنه يأخذ بعين الاعتبار الطرق التي من خلالها يكبح المجتمع أو يساعد على إدماج المهاجرين الجدد¹.

من هنا، فقد احتفظ العديد من الباحثين الأمريكيين بمفهوم الانصهار، بينما تبنى غالبية الباحثين الفرنسيين مفهوم الاندماج استلهاما لإرث دوركهايم، الذي سبق أن وظف المفهوم للإشارة إلى مشكل المجتمع في كليته². فدوركهايم يقول بأنه يمكننا الحديث عن مجموعة اجتماعية مندمجة إذا كان أعضاؤها: (1) يشتركون في نفس المعتقدات والممارسات. (2) هم في تفاعل فيما بينهم. (3) ويشعرون بأنهم يخدمون أهدافا مشتركة³.

من خلال ما سبق يمكننا القول بأن الاندماج هو سيرورة معقدة ومركبة، فعبد المالك صياد يعرف الاندماج على أنه "سيرورة لا يمكننا الحديث بشأنها والقول أنها ناجحة أو فاشلة، إنها سيرورة تشدد على الانتقال من غيرية راديكالية إلى هوية أكثر شمولية" ويضيف على أنها "تحتاج إلى الزمن وإلى التعديل من طرف المجتمع في كليته"⁴ وكما يذكر كل من Felir Dassetto و Albert Bastenir في

المؤسسات وفي الشبكات الاجتماعية الحميمة (الجوار، الصداقة، العائل). وبالنسبة لجوردن فإن هذه المرحلة هي الأهم: "حينما تتم عملية الانصهار الثقافي... فإن المراحل الأخرى تتالي بشكل طبيعي". المرحلة الثالثة هي عندما يتم اختيار الشريك من المجموعة الإثنية التي تشكل الغالبية، أما المرحلة الرابعة فتتم عندما يُعرف المهاجر نفسه من خلال رموز مجتمع الاستقبال، ومن خلال مؤسساته، في هذه المرحلة فإحساس المهاجر بالانتماء يتم بناء من خلال اتخاذ مجتمع الاستقرار كمرجع عوض مجتمع الأصل. المراحل الثلاث الأخيرة ترجع إلى الدور الذي يلعبه مجتمع الاستقرار في هذه الصيرورة، أما الحديث عن المرحلة الخامسة فبيدأ عندما لا تصبح المجموعة الإثنية التي تشكل أقلية محط عدا أو خوف من الأجنبي بالنسبة للمجموعة التي تشكل الأغلبية. المرحلة السادسة نتحدث عنها عندما لا تعاني الأقليات من التمييز، أما المرحلة السابعة والأخيرة فهي المتعلقة بالانصهار الحضاري منظورا إليه كإدماج سياسي ورمزي للمجموعات الإثنية الأقلية في المجتمع المستقبل (Rea, tripler, 2003, P 55).

¹ Ibid.

² فوزي بوخريص، مرجع سابق.

³ Raymond Boudon, ibid

⁴ - يعتبر عبد المالك صياد بأن الهجرة عموما هي "واقعة اجتماعية" fait social total، وهذا صحيح بنظره لكون الحديث عن الهجرة هو حديث عن المجتمع في كليته، في بعده الدياكروني، أي من منظور تاريخي، وأيضا في امتداده السانكروني أي من وجهة نظر بنيات المجتمع الحاضرة وطريقة اشتغالها (Sayad,2006,p18)

نظريتهما حول الدورة الهجرية Théorie du Cycle migratoire *فإن المقصود هو الزمن الاجتماعي le temps sociale وليس الزمن الكرونولوجي¹ le temps chronologique*

هكذا فسواء تحدثنا عن الانصهار أو عن الاندماج، فإن النماذج les modèles أو التعريفات السابقة، لا يمكن تعميمها في نظرنا. وذلك لكونها تصف حالة أو حالات من الهجرة، والمشاكل المرتبطة بها، وهي تلك المتعلقة بالهجرة الدائمة أو التي يفكر فيها المهاجر بالعودة، لكنها (تلك النماذج) تعجز عن تحليل الوضع الذي يكون لا يكون فيه البلد المستضيف، بلدا للاستقرار، لا المؤقت ولا الدائم (على الأقل من وجهة نظر المهاجر)، وإنما هو مجرد بلد للعبور أو "للعرقلة" (البلوكاج Blocage). فالمهاجر لا يبحث عن الاندماج في هذه الحالة إلا إذا كان سيخدم هدفه الذي هو المغادرة، والبلد المستضيف (المغرب في حالتنا) لا يبحث عن إدماج المهاجرين إلا لكون الهجرة أصبحت تشكل مشكلا بارزا (وبسبب ضغوطات داخلية وخارجية).

انتقال المغرب من بلد للعبور، إلى بلد يصفه المهاجر بالمعرقل (pays de blocage)، هو الذي جعلنا نتحدث عن سيرورات الاندماج، وطرح السؤال حول العلاقة بين الاندماج والسكن كمؤشر، يمكننا من خلاله مقارنة ذلك الاندماج المفترض. فالاندماج ليس سيرورة خطية، كما حاولت أولى النماذج وصفه (خصوصا نموذج الانصهار le modèle assimilationniste)، وليس مفكرا فيه دائما (سواء من طرف المهاجر أو بلد الاستقرار)، بل يمكن له أن يحدث بشكل تلقائي كنتيجة للزمن (الاجتماعي والكرونولوجي) الذي يقضيه المهاجر، وكذلك كنتيجة لقدرات كل مهاجر على التفاعل ومحاولة فرض نفسه. بمعنى أن المهاجر يمكن أن يجد نفسه في "مرحلة" متقدمة من الاندماج "دون وعيه" الشخصي بذلك.

3. مسارات الهجرة²

تمكننا المعطيات الميدانية المجمعة من رسم صورة ميكرو- سوسيولوجية لمسارات الهجرة، ولسيرورة ولوج المهاجرين من جنوب الصحراء (الكاميرونيين والسنغاليين تحديدا) للسكن بمدينة مكناس. فالدوافع التي تدفع الإنسان للتفكير في الهجرة، في الرحيل وترك الوطن "الأصلي"، ترك العائلة، والزوجة والأبناء تبقى متعددة، إنه "هروب" من الفقر، والبطالة، وانعدام الأمان، وبكلمة واحدة إنه

¹ Rea Andrea et Tripier Maryse, ibid, P. 101-102.

² - الحديث عن مسارات الهجرة يفرضه الميدان، فالولوج إلى السكن لا يتم بطريقة آلية ومباشرة وإنما هو مرتبط بمجموعة من المراحل والاستراتيجيات التي لا يمكن الوقوف عليها دون تتبع المسار الهجري.

بحث عن مكان أفضل للعيش. يقول "مومو" (كامبروني 33 سنة متزوج وأب لأربعة أطفال) كجواب على سبب الهجرة:

«... بلادي تعاني من الفقر وفساد السياسيين، نعاني من البطالة ومجموعة من المشاكل لذا قررت الهجرة لأحسن من وضعي. وضع المغرب ليس بأحسن حال. لكن المشاكل، الفقر، التهميش والبطالة درجات فأنتم هنا بالمغرب على سبيل المثال حتى أشد الناس فقرا يستطيع أن يجد ما يأكل، وهذا شيء غير ممكن في بلادي "الكامرون". هل تظن أن الإنسان يكون سعيدا بتركه لبلده وأهله وأصدقائه؟ أتعلم أنني لا أستطيع لمس أطفالي منذ أزيد من خمس سنوات؟ هل تظن أن هذا سهل علينا؟ لا يا صديقي الأمر صعب على الفهم وعلى التحمل (... الكامرون بلاد غنية أكثر من المغرب، فنحن نملك كل مقومات النمو نملك أرضا خصبة وتنوعا زراعيًا كبيرًا، نملك البترول، والماس...، لكن للأسف كل شيء تأخذه فرنسا التي كانت مستعمرة لجزء من بلادنا (الجزء الأخر استعمرته إنجلترا). فرنسا تملك كل ما يوجد في أرضنا ورؤسائنا باعوا وبيعوا كل شيء، لم يتركوا لنا من خيار سوى الهجرة. سنترك لهم الكامرون ونذهب نحن لتحرير فرنسا... الكامرون، نيجيريا، النيجر، ثم الجزائر فالمغرب، هذا هو المسار الذي اتبعه كل من قابلت، من المهاجرين الكاميرونيين، وكل محطة من محطات هذا المسار إلا ويمكننا اعتبارها (من وجهة نظر المهاجر نفسه) تجربة ومعاناة خاصة. حيث على المهاجر أن يتأقلم ويتكيف بسرعة، أن يقبل بأمور لم يكن يتخيل في يوم أنه سيتقبلها؛ فبدءا من النوم في الخلاء، والتعود على عادات غذائية جديدة، وشرب مياه غير صالحة، وصولا إلى محاولة التواصل بالإشارات أحيانا، يجد المهاجر نفسه منذ اللحظة التي يغادر فيها بلده أمام أوضاع جديدة.

المشي على الأقدام لمسافات طويلة، التعرض لقطاع الطرق، وللنصب من طرف مالكي وسائل المواصلات في الصحراء، العنصرية، والعنف، كلها أمور على المهاجر (الكامبروني) أن يتعامل معها بسرعة، وأن يتعلم كيفية الحفاظ على حياته المهددة باستمرار. على المهاجر أن يعمل هنا وهناك في كل محطة لتوفير المال للعيش، وإكمال الرحلة/المسيرة. بعد اجتياز الجزائر، التي تراوحت مدة عيش المهاجرين (المبحوثين) بها بين ثلاثة أسابيع وسنة، يصلون إلى مدينة وجدة؛ ليجد البعض في جامعتها ملجأً آمنا للراحة، والحماية من التدخل الأمني، في حين أن البعض الآخر يختبئ في الغابات التي تنصب فيها الخيام (لنصبح أمام مخيم للمهاجرين)، وفي الأماكن المحيطة بالمدن. هذه إذن هي الاستراتيجيات الأولى التي يحركها المهاجر ليضمن الابتعاد عن أعين الأجهزة الأمنية. بعد ذلك يسافر المهاجرون فرادى وجماعات، إما بالسير مشيا على الأقدام إلى تاويرت حيث يستقلون قطار البضائع الذي يمر مرة واحدة في الأسبوع (يوم السبت حسب أحد المهاجرين)، أو من خلال استقلال الحافلات إلى مدينة الناظور أو مدن الشمال.

ويقضي بعض المهاجرين- من يستقلون القطار بشكل خاص- مدة بمدينة فاس لجمع المال، من خلال العمل في أورش البناء، والتسول وبيع الماء أمام المقبرة أيام الجمعة، ويبدو أن أحد أسباب التوقف في فاس احتضانها "مخيما" للمهاجرين بمحطة القطار.

إن عددا ممن قابلتهم، من المهاجرين الكاميرونيين، قضوا وقتا بمدينة الفينديق، مختبئين في الغابة، ومحاولين العبور بشكل شبه يومي؛ بينما البعض الآخر قضوا وقتا بمدينة الرباط وطنجة، هذه الأخيرة فرض عليهم (من طرف الأجهزة الأمنية) تركها بعد الأحداث التي شهدتها أواخر سنة 2013، والتي أسفرت عن وفاة مهاجر كاميروني يوم 03 دجنبر، حيث اتهم المهاجرون السلطة بكونها المتسببة في سقوط المعني من الطابق الرابع لأحدى العمارات¹. وعن هذه الأحداث يقول "ابرا" (35 سنة، متزوج وأب لطفلين):

«بعد أعمال العنف، قامت الشرطة بإخلائنا، حيث تم جمعنا في حافلات وتفريقنا على المدن المغربية، وذلك بسبب أحد المهاجرين الذي كان يتعاطى الخمر بهار رمضان، ويخرج للشارع ويصرخ لم يكن يحترم المسلمين، كرر فعلته أكثر من مرتين، فاحتج السكان المغاربة. وهكذا فرض علينا الرحيل. كان عليه أن يحترم الدين» يمكن القول أن هذه الأحداث شكلت ولازالت تشكل حدثا بارزا في سيرورة تموقع المهاجرين (الكاميرونيين بشكل خاص) داخل المغرب. فمبحوثينا يتحدثون عن كون السلطات قد طاردتهم، أحرقت مخيماتهم، وجمعتهم في حافلات، ليتم تفريقهم على مختلف المدن. إعادة التوزيع هذه هي ما فرض على المهاجرين الدخول في سيرورات جديدة من التفاعل سواء مع المجال أو مع المغاربة.

إذا كان المهاجر الكاميروني يحكي مساره الهجروي بألم، ويتحدث عن تجاربه كمعاناة مستمرة في الزمان والمكان، فإن كل السنغاليين الذين قابلتهم يقولون بأنهم وصلوا إلى المغرب عبر الطائرة، وهذا راجع برأيهم لطبيعة العلاقات التي تربط بين المغرب والسنغال، والتي يعتبر الإسلام جوهرها، فالسنغال من بين البلدان المعض مواطنوها من إصدار تأشيرة الدخول إلى المغرب، ويمكثهم المكوث بشكل قانوني على أرض المملكة لمدة 3 أشهر لغرض السياحة. من هنا نسجل أول نقطة اختلاف بين المهاجرين، السنغاليين والكاميرونيين بخصوص مسار الهجرة.

بالإضافة إلى هذا، فإذا كان الكاميروني يسافر في مجموعات، فإن السنغالي يسافر إما بشكل فردي أو كثنائي، كما أن كل السنغاليين يقولون إنهم أتوا مباشرة إلى مكناس بناء على اتصالات أجروها

¹ <http://www.tanja24.com/news7227.html>

قبل الوصول سواء مع أفراد من عائلاتهم أو مع أصدقاء قدامى. يقول "مامادو" (21 سنة): «أنا هنا منذ ثلاثة أشهر وصلت إلى المغرب عبر الطائرة. وجئت مباشرة إلى مكناس عند أصدقائي بحي الزيتون».

4. استراتيجيات البحث عن السكن

كما سبقت الإشارة، فإن الحديث عن الهجرة بالمغرب ينبغي أن يفرق بين ما قبل وما بعد أحداث طنجة، فمكناس على سبيل المثال قبل تلك الأحداث لم يكن يعرف بروزا للمهاجرين من جنوب الصحراء اللهم عددا من "السنغاليين" الذين يختصون في بعض الأنشطة التجارية المتمثلة في بيع الحلي والهواتف. كانوا يعرفون باسم "عوازا" "الكوخل" السنغاليين، تجدهم هنا وهناك وفي الأسواق اليومية والأسبوعية. لكن بعد الأحداث المذكورة أصبح المهاجر بارزا ليس بسبب لون بشرته التي تميزه فقط، ولكن من خلال احتلاله لبعض الأماكن العامة؛ سواء في ملتقيات الطرق حيث يمارسون التسول، أو في بعض أحياء المدينة، وبشكل خاص أحياء كومباطا، السباتا، والزيتون، والمنصور

إن اختيار هذه الأحياء دون غيرها جعلنا نطرح سؤال لماذا؟ لماذا هذه الأحياء بالضبط؟ ولماذا مكناس؟ فدراسة موضوع ولوج المهاجر إلى السكن هو دراسة وتساؤل حول الوضع الاجتماعي والاقتصادي لذلك المهاجر¹. وكجواب عن السؤال الأول يقول "مومو": «عندما أبحث كمهاجر عن سكن فأنا أبحث في أحياء معينة، أحياء شعبية حيث يتم قبولنا. فيمكننا مثلا أن نتعاون مع مهاجرين آخرين ونقطن بشقة مستقلة في عمارة، لكن المشكل (حتى إن وافق المالك) هو أن سكان العمارة لن يقبلوا بمشاركتنا لهم نفس المكان، لن يقبلوا برؤية "عوازا" في كل وقت، وهذا ما حدث معي في الرباط».

أما السؤال الثاني (لماذا مكناس؟) فمبحثونا يجمعون على كون مكناس مدينة «ترحب بالمهاجر» (Accueillante)، مدينة مسالمة، والعنصرية بها قليلة مقارنة بمدن أخرى (طنجة، فاس مثلا)، كما أنها في البداية لم تكن تعرف عددا كبيرا من المهاجرين مما يجعل منها «اختيارا مثاليا» على حد تعبير "كاسي" (32 سنة متزوج وأب لطفل) الذي جاء إليها (مكناس) قادما من مدينة ايملتانوت حيث تركته السلطات بعد عملية التفريق.

من خلال ما سبق يمكن القول بأن سيرورة البحث عن السكن بالنسبة للمهاجرين لا يمكن أن تتصور على أنها موحدة، بل على العكس من ذلك فهي سيرورة "معقدة" تختلف من حالة لأخرى،

¹ Marie-Noëlle Rosenweg, logement des immigrants et processus d'intégration, voir le site web :

http://www.revuesplurielles.org/uploads/pdf/47/245/245_logement_et_processus

من مهاجر للآخر وبحسب جنسية المهاجر. كما أن الاستراتيجية المتبعة (من طرف المهاجر) تختلف بحسب هل أتى بمفرده أم رفقة مهاجرين آخرين، وحسب شبكة علاقاته الشخصية.

إن استراتيجية البحث عن السكن، يمكن أن تكون قبلية أو بعدية. فعدد من المهاجرين جاؤوا مباشرة عند صديق، أو أخ، أو أحد أفراد العائلة يقيم بمكناس. من خلال الهاتف، الشبكات الاجتماعية (فيسبوك، واتساب) يتم التواصل وتحديد الوجهة، سواء من مدن أخرى داخل المغرب أو من بلد الانطلاق. أما بخصوص المهاجرين الذين يأتون دون سابق معرفة بشخص آخر (الكامرونيون خصوصا) فإنهم ينهجون إستراتيجية البحث عن أماكن تواجد مواطنهم عساهم يجدون شخصا سبق لهم معرفته سواء في البلد الأصلي، في الطريق أو في مدينة أخرى. في هذه الحالة يكون المهاجر مهياً لقضاء يوم أو عدة أيام في الخارج، وبخصوص هاتين الاستراتيجيتين، فإنه يمكننا التمييز كذلك بين ما قبل وما بعد أحداث طنجة. فإذا كان المهاجر ما قبل الأحداث يقصد بشكل تلقائي المدن الحدودية (وهو الشيء الذي لا يزال مستمرا) فإنه اليوم (خاصة الذين يتوفرون على شبكة علاقات) يقصد مكناس مباشرة بعد دخوله للمغرب.

إذا كان مطار محمد الخامس، بمدينة الدار البيضاء، محطة القطار أو المحطة الطرقية بمكناس، هي الأماكن الأولى التي يلتقي بها المهاجر السنغالي أحد معارفه الذي يكون في انتظاره، والذي إما يوفر له طاولة لبيع الحلبي أو يجد له عملا في مكان ما (أغلب السنغاليين يأتون مع مبلغ من المال) وقبل هذا وذاك يوفر له السكن. فإن ملتقيات الطرق هي المكان الذي تتم فيه أولى المقابلات بين المهاجرين الكامرونيين الجدد والقدامى، وهو المجال الذي يمكن أن نعتبره الحاضن للأولى الصدمات التي يتلقاها المهاجر الجديد، الذي لم يسمع من قبل بممارسة التسول من طرف المهاجرين بالمغرب؛ يقول "كيمو" بهذا الصدد: «عندما وصلت إلى مكناس ورأيت المهاجرين في ملتقيات الطرق تفاجأت وسألت صديقي الذي كان يرافقني: لماذا يتسول إخواننا؟ قال لي: أنت أيضا عليك فعل نفس الشيء لتعيش هنا». الصور التي يتم نشرها على "الفيسبوك" من طرف المهاجرين يتم اختيارها بعناية، لكي يبدو المهاجر في وضع جيد، فأغلب المهاجرين لا يتحدثون لعائلاتهم أو أصدقائهم عن الوضع الحقيقي الذي يعيشونه بالمغرب. بهذا المجال (ملتقيات الطرق) يتم السؤال عن مكان سكن القدامى، عن طرق البحث، وعن إيجاد مكان للاستقرار ريثما يتم إيجاد السكن المناسب. يقول "مومو" في هذا الصدد بعد أن وجد عملا في أحد ورش البناء بمدينة مكناس: «حملت فراشي وذهبت إلى مفترق طرق بحي السباتا حيث كنت في وقت سابق لمحت بعض المهاجرين، لكن بحكم أنني تأخرت لم أجد أي أحد، بحثت في الأنحاء عسى أن أجد مهاجرا لكن دون جدوى. قررت النوم خارجا ذلك اليوم، وفي الصباح عدت للعمل. في المساء حاولت عدم تضيق الوقت واتجهت مباشرة إلى مفترق الطرق المذكور حيث وجدت

من بين المهاجرين شخصاً أعرفه. أخبرني أنه يمكنني مشاركته رفقة زوجين كامبرونيين غرفة بحي كومباطا، بعد يومين أو ثلاثة وجد الزوجان غرفة خاصة لنبقى أنا وصديقي يؤدي كل واحد منا 200 درهم في الشهر. وبعد حوالي ثلاثة أسابيع غادر صديقي هو الآخر باتجاه مدينة العيون ومنها إلى إسبانيا. في ذلك الوقت جاء عندي أخي قادمًا من مدينة فاس». ستة مبحوثين كامبرونيين ممن قابلتهم أخبروني بأنهم قضوا وقتًا (ما بين أسابيع وأشهر) في "الغيتو" الذي هو عبارة عن "خربة" (منزل مهجور بدون كهرباء أو ماء) بحي الزيتون¹.

بعد أن يُكوّن المهاجر الجديد علاقات داخل الحي، فإنه يجد السكن إما بالذهاب عند "السمسار" Agent immobilier الذي يكون على معرفة مسبقة بالمالك اللذين يقبلون بالمهاجرين. أو من خلال توسط أحد المهاجرين الذي كون علاقات سواء مع المغاربة أو مع بعض ملاك المنازل. ففي المرة الأولى التي وافق صاحب المنزل الذي أجريت فيه الملاحظة أن يكتري غرفة لبعض المهاجرين، الذين جاء بهم السمسار، كانت لديه عدة غرف شاغرة، وهو الشيء الذي لا يرغب به أي مالك، وقد قبل لأن «الحركة كانت عيانة» على حد تعبيره. والسمسار بعد أن عرف أن المكتري يقبل بالمهاجرين جلب له، فيما بعد، آخرين. وهكذا أصبحت أربع غرف بالمنزل في حوزة الكامبرونيين.

مما سبق نخلص إلى أنه لا يمكن الحديث عن استراتيجية للبحث عن السكن، وإنما عن استراتيجيات متعددة؛ فإذا كان المهاجر السنغالي (غالبًا) يجد السكن مهياً قبل وصوله إلى المغرب، فإن الكامبروني يكون عليه (غالبًا) أن يمر بمراحل عديدة ليجد سكنًا (الغابة، في العراء، الغيتو، ثم السكن).



¹ - ورثها شخص عن أبيه، وهو حسب المبحوثين "مجرم" يتاجر في المخدرات ويقوم بمشاركة هذا المكان مع المهاجرين مقابل 200 درهم في الشهر.

5. السكن والاندماج أية علاقة؟

اعتمادا على المعطيات الميدانية، فكل المبحوثين يجمعون على أنهم لم يأتوا إلى المغرب من أجل الاستقرار، بل هم هنا للعبور إلى أوروبا (وفي حالة واحدة تتعلق بمهاجر سنغالي قال بأنه هنا ليجمع مبلغا من المال ويعود لإكمال دراسته الجامعية)؛ لكن نظرا للظروف الحالية التي تجعلهم يعيشون في حالة عرقلة (Blocage)، فإن محاولة الاندماج من شأنها أن توفر لهم بعض الامتيازات. هكذا، يعتبر كل من قابلتهم من الكاميرونيين بأن السكن أساسي للاندماج، وكما يقول أحدهم «السكن ضروري لتواصل مع المغاربة، فبدون التواصل لا يمكن الحديث عن اندماج». غير أنه بإجماعهم على ذلك، يكادون يجمعون على كون اللوج إليه ليس بالعامل الرئيسي للاندماج، بل هو مكمل، فأهم شيء بالنسبة للمهاجر يبقى العمل؛ ومن دونه لا يمكن الحديث عن لوج للسكن أو للمجتمع بشكل عام.

في المقابل فإن السنغاليين منذ البداية لا يولون أي أهمية لعامل السكن في الاندماج، ويتشاركون مع الكاميرونيين في كون العمل هو أساس الاندماج؛ وتجدر الإشارة إلى أن كل السنغاليين يتحدثون عن الكاميروني كشخص لا يريد العمل، ويبحث عن النقود بأسهل الطرق التي هي التسول، وهذا من شأنه أن يؤثر على نظرة المغاربة (الذين لا يفرقون بين الكاميروني والافواري والسنغالي...) للمهاجر. من هنا فإن الاندماج والاستقرار في المغرب محكومان بتوفر نفس الشروط (ولو بشكل قريب) المتوفرة بالوجهة المرغوبة (أوروبا): العمل، إمكانية تحويل الأموال، حقوق الإنسان، والاحترام المتبادل. وعن هذا الأخير (الاحترام المتبادل) فإن المبحوثين يعتبرون أن بعض المغاربة عنصريون، ينقصون من قيمة الشخص بسبب لون بشرته، وهذا برأيهم عائق أساسي لعملية الاندماج.

إن الملاحظات وكذا المقابلات التي أجريناها، مع ملاك المنازل، والمغاربة الذين يتشاركون السكن مع المهاجرين (الكاميرونيين)، جاءت لتؤكد على أن هناك تمييزا صريحا من طرف البعض اتجاه المهاجر بسبب لون بشرته، وبسبب بعض السلوكات، والاختلافات في العادات، وعلى أساس الدين¹، وهذا من شأنه بطبيعة الحال أن "يعرقل" سيرورة الاندماج. وهذه بعض المفردات التي توضح ذلك: "عزي، كحل، دين مهموم، موسخين، خازنين، معفونين، الوحوش، وكالين رمضان...".

غير أن هذا لا ينبغي تعميمه، فقد وجدت بأن هناك من يتعاطف مع المهاجر بسبب وضعه ومن يقبل الاختلاف (خصوصا المثليين الجندسين، والطلبة الذين يسكنون بالمنزل الذي يعيش فيه

¹ - فخلال شهر رمضان كان يشكل الطبخ مشكلا بالنسبة للمهاجرين الكاميرونيين الغير مسلمين، نظرا لكون المغاربة يستنكرون ذلك، وقد استغرب أحد المهاجرين الذي كان في زيارة للمنزل الذي أقطن فيه عندما رأى أصدقائه يطبخون أمامنا (نحن المغاربة) في نهار رمضان، وقال «شيء غريب تستطيعون الطبخ في النهار؟ أنا لا أستطيع فعل ذلك...».

المهاجرين). أما علاقة المهاجر بساكنة الجي، فهي الأخرى تتميز بالازدواجية، حيث هناك من يتحدثون ويتبادلون معه التحية، وهناك من يرميه بنظرات قاسية، وبعض الكلمات الجارحة. وتبقى محلات البقالة من بين الأماكن التي توفر للمهاجر قدرا من الاحتكاك سواء بالبقال أو بسكان الجي.

من خلال ما سبق يمكن القول (مع كثير من الحذر) بأن الرغبة في الاندماج ليست رغبة في الاندماج لحد ذاته، وإنما هي شيء مفروض نظرا للظرفية الحالية. وبهذا يصبح الاندماج استراتيجية يفعلها المهاجر في انتظار فرصة العبور. غير أن هذه المحاولة في الاندماج تبقى محكومة ليس فقط؛ برغبة المهاجر، وإنما أيضا بمدى تقبل المغاربة للآخر، ومدى توفر مجموعة من الشروط السوسيو-اقتصادية.

6. المهاجرين أسطورة الاستقرار ووهم الاندماج

عندما نتحدث عن المهاجرين بالمغرب عموما وبمدينة مكناس خصوصا، فإننا نشير (بشكل خاص) إلى المهاجرين من جنوب الصحراء، اللاجئين السوريين، وإلى الأوروبيين. وكل "فئة" تتميز عن الأخرى بمجموعة من المحددات، فالمهاجر من جنوب الصحراء له صورة مزروعة القيمة لأنه (في المخيال الجماعي) فقير وبدون كفاءة إنه "عزي" "كحل" (أسود)...الخ؛ السوري هو مسلم، وأخ، ولاجئ حرب تعيش بلاده ظروفًا صعبة، من هنا فلجوءه ليس لجوء قانوني فقط وإنما لجوء أخ إلى أخيه في وضع الشدة. كما أن تواجده له بعد رمزي يتم توظيفه سياسيا¹، فيكفي أن تستقل سيارة أجرة وتمر بأحد ملتقيات الطرق (حيث يمارس السوريون والجنوب صحراويون التسول) لتسمع الخطاب الذي يتداوله المغاربة «الحمد لله على نعمة الاستقرار.. شوف مساكن السوريين أش دارت فيه الحرب. الحمد لله على ملكنا.. اللهم الجوع ولا الحرب.. اللي زاغ ها النتيجة»؛ أما الأوروبيون فإنهم يعيشون وضعًا مختلفًا عن الفئتين السابقتين حيث لهم (الأوروبيون) صورة إيجابية في المخيال المغربي "لاباس عليهم (أغنياء)، مستثمرون، متعلمون...الخ". من هنا فالحديث عن أوضاع المهاجر يجب أن يفرق بين كل فئة من هذه الفئات وألا يعمم خصوصيات إحداها على الأخرى.

هكذا قادنا البحث في علاقة الولوج إلى السكن باندماج المهاجرين من جنوب الصحراء بمدينة مكناس، إلى البحث في مسارات هؤلاء المهاجرين (الكامرونيين والسنغاليين)، وفي الاستراتيجيات التي

¹ - المتابع للشأن السياسي المغربي لن يستغرب حديث رئيس الحكومة وكل الفاعلين السياسيين عن الاستثناء المغربي، وعن الإصلاح في ظل الاستقرار، فلا يجدون أدنى حرج في إعطاء المثال بما تعيشه دول "الربيع العربي" «واش بغيتونا نوليو بحال سوريا»، أو قول الكاتب الأول لحزب الاتحاد الاشتراكي في إطار الحملة الانتخابية للسابع من شتنبر 2016: «إذا رجح حزب العدالة والتنمية الانتخابات فإن المغرب سيصبح في وضع أكثر من سوريا...».

يحركونها في سبيل إيجاد السكن، وإلى محاولة رصد سيورة الاندماج المفترض والعلاقة بين السكن كمؤشر والاندماج كغاية، وذلك من خلال طرحنا سؤال، كيف يعيش المهاجر داخل المنزل، كيف ينظم وقته، وكيف يتعامل مع باقي السكان (سكان المنزل والحي...). فإذا كانت الهجرة حسب عبد المالك صياد، تتحقق ويجب النظر إليها في الألم، وهو ألم يشترك فيه المهاجرون والباقون في البلد (العائلة)؛ فإن تلك الهجرة لا يجب أن تكون ضريبتها التخلي، أو حتى القليل من التنازل، الذي يمكن أن يبدو وكأنكار للجماعة. فالتخلي التنازل والإنكار سيصبح، في هذه الحالة، تخلي تنازل وإنكار للذات؛ لأن الشخص ككائن اجتماعي ليس له وجود إلا من خلال الجماعة (وبشكل مثالي في جماعة أقرانه) ومن أجل الجماعة. فالعيش عند الآخرين ضمنهم ومعهم، يضيف عبد المالك صياد، هو عيش بشكل أكثر أو أقل انفتاحا، أكثر أو أقل عمقا، عيش بطريقتهم في كل مجالات الوجود، وليس بمقدور المهاجر سوى إعطاء الإحساس بأنه مهياً للعيش مثلهم والانصهار فيهم¹. لكن في المقابل ودون أن يشكل ذلك أدنى تناقض، فإن المهاجر يبرز أنه وفي لذاته، ولأصوله، ممثل لهويته. وتحريكه لهذا الإحساس بالوفاء للذات والامتثال للهوية، في سياق يحمل على العكس من ذلك على القطاعات، هو تحريك mobilisation لا بد وأن يكون غير متكافئ حسب الميادين؛ فالاستثمار، الذي يمكن أن نسميه هوياتي، لا يمكن أن نجد نفسه في كل مكان وزمان².

هكذا، فإذا كان المهاجر يعيش في الخارج (في الأسواق حيث يمارس التجارة، وفي ملتقيات الطرق، ومع جيران الحي والمنزل...) محاولاً إبراز كونه قادر على الاندماج، فإنه يعيش داخل المسكن المغربي بـ "ثقافة كامبرونية"، أو ما يمكن أن نطلق عليه بـ "عيش الكامبرون في المغرب"، وذلك من خلال اللغة المتداولة داخل المنزل التي هي في غالب الأحيان لغة محلية. وكذلك من خلال المطبخ تحضير وجبات محلية)، ومن خلال الموسيقى التي يتم الاستماع إليها.

المسكن (الذي من المفترض أن يسهل عملية الاندماج) هو الآخر يتميز بكونه مؤقتاً. فالمنزل والغرف المخصصة للكراء بكل الأحياء التي يتواجد بها المهاجر الجنوب صحراوي بمدينة مكناس (الزيتون، سباتا، كومباطا، المنصور) يخصصها أصحابها للسكن المؤقت، وللعاشرين (من طلبة وجنود وشباب يبحثون عن مكان لممارسة الجنس أو ما يصطلح في اللغة المتداولة بـ "البرتوش"... الخ). فمنذ اللحظة الأولى، يُنظر إلى المهاجر على أساس أنه مؤقت، يقطن مع جيران مؤقتين، وفي مسكن مؤقت. والعلاقة مع مالك المنزل هي علاقة غير شرعية من الناحية القانونية، حيث أن أغلب المهاجرين لا

¹ Abdelmalek Sayad, *ibid*, P. 147-148.

² *Op.cit.* P 160.

يتوفرون على الإقامة ومالك المنزل يستأجر الغرف "خارج القانون للتهرب من الضرائب"¹، إننا أمام خرق مزدوج للقانون؛ وبهذا نكون أمام محاولة للاندماج خارج القوانين الرسمية، وبالتالي فإن أي اندماج داخل المؤقت إلا وسيكون، هو الآخر، اندماجاً مؤقتاً. أليس المهاجر دائماً مؤقت؟ وغالباً ما يُنظر إليه وينظر إلى نفسه كطائر عابر *oiseau de passage*؟

داخل/خارج المنزل. يقابلها حضور/غياب في المجتمع الأصلي، وفي المجتمع المغربي. المهاجر هنا وهناك، إنه حاضر وغائب، وإذا قلبنا العبارة فالمهاجر لا هنا ولا هناك، إنه حاضر مرتين وغائب مرتين كذلك. هنا هو حاضر فيزيائياً، مادياً، بشكل جسدي فقط، لكنه غائب عقلياً وروحياً؛ وهناك هو غائب فيزيائياً، مادياً وجسدياً، لكنه عقلياً وتخيالياً *imaginativement* وروحياً حاضر².

ازدواجية الحضور والغياب، التي تحدث عنها الصياد بخصوص المهاجرين (الجزائريين خصوصاً) في فرنسا، تتحول في حالة المهاجرين من جنوب الصحراء للمغرب إلى ثلاثية؛ فالمهاجر حاضر مادياً وجسدياً في المغرب، لكنه غائب عقلياً وتخيالياً عن البلد الأصلي، وكذلك عن الوجه المرغوبة (أوروبا). وإذا كان الصياد قد تحدث عن وهم المؤقت *L'illusion du provisoire*، ألا يمكننا الحديث في حالتنا عن وهم الاندماج؟

المهاجر هناك (في فرنسا مثلاً) كان ينظر إليه، وينظر إلى نفسه، كمؤقت، لكن الشروط والظروف التي يعيش فيها تساعده (إلى حد ما) على البقاء والاستقرار، وبالتالي تصبح العودة "أسطورة" والنظر إليه (أي المهاجر) كمؤقت "وهم".

أما هنا (في المغرب) فشروط الاستقرار غير متوفرة في نظر كل المهاجرين. حيث يقول أحدهم: «ليس في المغرب ما يشجعنا على البقاء، فلا عمل، ولا احترام ولا تقدير، كما لا يمكننا تحويل الأموال لعائلاتنا...، فلماذا سنبقى؟». من هنا تنعكس المعادلة السابقة ليصبح الاستقرار أسطورة والاندماج وهم.

¹-علاقة ملاك المنازل بالقانون هي علاقة غامضة، ففي حين كون عملية الكراء يجب أن تكون خاضعة لسلطة القانون نجد أن الأمور تتم بطريقة غير قانونية وعلى مرأى من الجميع، والسلطة المحلية ممثلة في المقدمين والقائد شأنها شأن الشرطة لا تتدخل إلا حين حصول المشاكل (استنكار الجيران لإدخال الطلبة للفتيات، طرد لأحد المكترين، رفض تسديد الواجب الشهري...).

² Op.cit. P 162.

خاتمة

حاولنا في هذا المقال الإجابة على سؤال العلاقة بين الاندماج والولوج إلى السكن بمدينة مكناس، من خلال تتبع مسارات المهاجرين (الكاميرونيين والسنغاليين)، والبحث في استراتيجيات إيجاد سكن، ومعاينة الحياة اليومية للمهاجر الكاميروني داخل المنزل لمدة تجاوزت الخمسة أشهر. وقد خلصنا إلى كون المسارات متعددة ومعقدة، تختلف بحسب الجنسية وقدرات كل مهاجر، وما يمتلكه من إمكانات مادية، وكذلك بحسب شبكة علاقاته. فالمهاجر الكاميروني يحيي مساره كمعاناة وألم يمتد في الزمان والمكان. في حين السنغالي يروي مساره وكأنه مريحه. أما بخصوص استراتيجيات البحث عن السكن فإن المهاجرين السنغاليين يأتون مباشرة عند صديق أو فرد من العائلة في حين أن الكاميرونيين يكون عليهم أن يَمروا بالغابة، فالعراء، فالغيتو، ثم السكن.

الحياة داخل المسكن (الذي هو غرفة مشتركة بين شخصين أو أكثر) تتميز بكونها حياة مؤقتة، والعلاقات التي ينسجها المهاجر مع الجيران هي في الغالب مؤقتة وهشة، فالسكن كما -وضحنا ذلك- مؤقت والسكان مؤقتون، وبالتالي حتى الاندماج لا يمكن له إلا أن يكون مؤقتا وهشا.

ففي نظرنا للحديث عن الاندماج لا بد أن يكون الاستقرار محسوما (بالنسبة للمهاجر). وبدون هذا الأخير، فإن أي محاولة للاندماج أو الإدماج، سيكون مصيرها الفشل. والمغرب حسب مبحثنا لم يتحول بعد (ولو على المستوى التخيلي) إلى بلد للاستقرار، وحتى إن لم يعد بلدا للعبور فإنه لا يعدو أن يكون بلدا للعرقلة. يقول أحد المبحوثين الكاميرونيين: «نحن لسنا هنا للاستقرار وإنما للعبور إلى أوروبا، ولو فتحت الحدود فلن تجد أي مهاجر، بل حتى أغلب المغاربة سيمهجون».

قائمة المراجع:

1. أبوزيد، أحمد. "الهجرة وأسطورة العودة"، مجلة عالم الفكر المجلد السابع عشر، العدد الثاني، 1986.
2. فوزي، بوخريص. الاندماج الاجتماعي والديمقراطية: نحو مقاربة سوسيولوجية، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2015.
3. Boudon, Raymond et al. Dictionnaire De La Sociologie, éd La Rousse Paris, 2012.
4. Khachani, Mohammed. Contexte migratoire et espaces d'intégration au Maroc, 2014.

5. Association Lumière sur l'Emigration au Maroc, Migration subsaharienne, 2015.
6. Rea Andrea et Tripier Maryse. Sociologie de l'immigration, éd La Découvert, Paris, 2003.
7. Rosenweg, Marie-Noëlle. logement des immigrés et processus d'intégration, voir le site web :
8. http://www.revuesplurielles.org/_uploads/pdf/47/245/245_logement_et_processus_integration.pdf.
9. Sayad Abdelmalek, L'immigration ou les paradoxes de l'altérité, 1.L'illusion du provisoire éd Raisons D'agir Paris, 2006.